

التَّهريب والأتجار من فيتنام إلى أوربا

ميمي فو ونادية السبتاوي

هجرة الفيتناميين إلى أوربا ظاهرة معقدة غير مستقرّة في حالها، فيبتدأ مسار الأعمال فيها بتَّهريب الناس، ثم يدخل فيه الأتجار بهم أيضاً وغير ذلك من ضروب الاستغلال.

فإن رأى فيتنامي أن يقترض نفسه مالا ويتجسّم السفر إلى أوربا، تحمّل من ذلك عبئا مالياً ونفسانياً فادحا. ويستعمل المهربون والعصابات الإجرامية الاستدانة ليزيدوا في قوتهم على التحكم في المهاجرين خلال السفر، فيكثر أن يجبروهم في طريقهم على ما فيه استغلالهم، كأن يُعْمَلوهم في بيع العقاقير الزائفة، أو في مصانع الشقاء حيث العمل مديد والأجر زهيد والحال في الحضيض. وأما النساء والأطفال ففيهم خاصّة من مواطن الضعف ما يُعْرَضهم للاغتصاب والغاء القسري أو غيرهما من ضروب الاستغلال الجنسي، في البلاد التي يعبرونها، كروسيا وأكرانيا وبولندا وجمهورية التشيك وألمانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا.

على أن أوائل المستجيبين لذلك في أوربا، من موظفي إنفاذ القانون والمنظمات غير الحكومية، يتحمّلون كثيراً من المصاعب في تعيين ودعم الفيتناميين الذين يُجتمَل أن يكونوا ضحايا أتجار. ومن ذلك: مصعبّة قُصُر في موظفي إنفاذ القانون والأعمال الاجتماعية الناطقين باللغة الفيتنامية، ومصعبّة عدم معرفة السياق الثقافي الفيتنامي، وهذه تُصعّب معها عند إجراء المقابلات دقّة تقدير السنّ وطمأننة المهاجرين إلى أمنهم، ثم مصعبّة قلة عدد المترجمين الرسميين العارفين بحال الأتجار والتَّهريب. ويكثرُ ألا يُعرف أوائل المستجيبين والسُلطات من أعمال الأتجار والتَّهريب إلا ما يُعْمَل في حدود بلادهم، ولما لم يكن في استجابة مُنْفِذِي القانون تنسيق كانت عصابات الإجرام المنظم تدير أعمالها بين الخفاء والعلن. ثم من عدم التواصل والتنسيق بين البلاد وما يشاكلها من هيئاتها امتنع تنسج المهاجرين بعد عبورهم حُدودها.

بناءً ثقة على يد أوائل المستجيبين

بلغت نسبة الفيتناميين من جميع من قَدِمَ مطارَ باريس رُوسِي (وهو جزء مسلك تَّهريب من الجدة مكان قريب، يُنقل فيه الناس من طريق هاييتي) في سنة ٢٠١٨ من القاصرين غير المصحوبين نحواً من ٥٠%. وقد طلب إلى فرقنا

فيتنام هي إحدى أكثر البلاد التي يصدر منها المهربون والمتَّجّر بهم إلى أوربا. وأكثر هؤلاء شباناً وصبياناً من أهل بضع مقاطعات تقع في شمالي البلد وشمالي وسطها، يتجسّمون أخطار السفر وطولها لأسباب، أعظمها اعتقادهم أن فرص الرّيح في بلاد ما وراء البحار أحسن. ومع أن اقتصاد فيتنام ينمو، وموّه مستمر مطرد، ليس فيها تكافؤ فرص للارتقاء الاجتماعي والمعاشي، لا بالتعليم ولا بالتوظيف، ومعظم الفرص مركوزة في الحضر. والفيتناميون الذين عَدِموا هذه الفرص، ويقدمون من مقاطعات جُري فيها من عهد بعيد على طلب العمل في بلاد ما وراء البحار، هم سواد المهاجرين إلى أوربا.

وكان بفيتنام في ثمانينيات القرن العشرين برامج لإصدار العمال من البلد وأخرى لطلب العلم خارجها، جرت بينها وبين بلاد الكتلة السوفيتية -سابقاً-، فأدّت إلى نشوء جاليات فيتنامية في موسكو وكيف ووارسو وبراغ وبرلين. وما تزال طرق التجارة والهجرة هذه إلى اليوم مسلوكة، ثم إن فيتنام الآن هي البلد التاسعة بعد أكثر بلاد العالم تسلماً للأموال المحوِّلة إليها. وما زالت خدمات تيسير الهجرة مستمرة بعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، غير أنها اليوم على هيئة أعمال في تهريب الناس، تُديرها عصابات إجرام منظم قادتها فيتناميون، في فيتنام وفي بلاد ما وراء البحار.

على أن السائر الآن في الاتفاق بين المهرب والمهرب أن يتم مشافهة أو بوسائل التراسل والتواصل الاجتماعي، مثل فيسوك وزالو (Zalo). وبعد أن كانت الفاجعة في تشرين الأول/أكتوبر سنة ٢٠١٩، موت ٣٩ فيتنامياً، إذ عُثِر عليهم أمواتاً في شاحنة مُبرّدة بإسكس (في جنوبي شرقي المملكة المتحدة)، صار المهربون يُسمون ٥٠ ألف دولار أمريكي أو أكثر، ثمناً، ويزعمون للمهرب أنهم ضامنون له طريقاً آمناً إلى المملكة المتحدة ووظيفة فيها. فتقرّض الأسر نصف جميع المبلغ، في الأقل، لتدفعه في مُقابلة إجازتها المرحلة الأولى من فيتنام إلى بلد أوروبية.

تفضّلان من لاعبي كرة القدم؟ وهماحنا في أظفار ماي أن كم يهّم كل امرأة فيتنامية أن تجد لها دارَ عناية بالأظفار حسنة. وقد استعملنا في مخاطبتهما الألفاظ المناسبة -أي (چي = chi) ومعناها 'الأخت الكبيرة' و(ام = em) ومعناها 'الأخت الصغيرة' أو 'الأخ الصغير' - واستعملنا منطقة البروج 'الفيتنامية لاستعلام سنهما؛ ذلك أن العادة جرت في فيتنام بأن يجاب عن استعلام السنّ بذكر صورة الحيوان المخصوصة برّج المستعلم لا بذكر عدد السنين.

فبدأت ثقة ماي وتوان بنا تستحکم في قلبهما قليلاً قليلاً، حتّى بلغا من الأّس بناحيتنا أن كاشفانا بمزيد من أخبارهما الصحيحة. أما ماي فكانت بالغة من السنّ إلى ما يزيد قليلاً على ١٨ سنة، وخائفة من السفر على حدتها، مشتاقة إلى لقاء أهلها كثيراً. وقد شرعت في هذا السفر بعد أن أبعدها أبوها من أوربا قبل شهر، فوجب عليها بعد أن تقضي الديون وتعود أهلها. ولم يكن لماي علم مبلغ دينها. إذ سلكت طريق 'ذوي الجاه' وهو طريق يُنقل سالكوه في الجوّ إلى فرنسا، ولكن المهريين اشتروا عليها أن تنتظر بلوغها منتهى السفر -وهو المملكة المتحدة- فيخبروها ما عليها لهم من الدّين. ويغلب على

الظنّ أنها لو وصلت لقالوا لها إن مبلغ الدّين نحو من ٥٠ ألف يورو، ففضأ دين هذا مبلغه وعول أهلها عبء فادح، باعث على ما فعلته فيما بعد.

وأما توان، فقد توفّي أبوه تاركاً ديناً على الأسرة. وكان توان يدرس القانون والسياسة في الجامعة، ولكن عمته وعمه حتاه على أن يتزك ذلك ويذهب إلى المملكة المتحدة، ليكسب المال ويعين الأسرة كلها، وفيها أمه وأخته الموقفة. وكان حال توان كحال ماي في أنه لا يعلم مبلغ ثمن السفر حتّى يبلغ المملكة المتحدة. فلو أنه بلغها لكانت عمته وعمه اقترضا المال من غير موضع ليدفعا مبلغ الثمن، وكان توام مكلفاً بكسب المال لقضاء دين عمته وعمه.

موظفون من جمعية الصليب الأحمر الفرنسي، مخصّصون للقيام بأمر من يحجز من الفارين غير المحبوبين عند الحدود الفرنسية، أن تعمل الترجمة الشفهية والدعم الاجتماعي الثقافي لشاب وشابة فيتناميين، يحتملان أن يكونا ضحيتا اتجار. وقد أجزّ لهما ألبقاء في فرنسا مؤقتاً، فأطلقا من حجزهما إلى هيئة حماية الأطفال، فهيات لهما السكنى، ولبنا ينتظران أن يبت في وضعهما الرسمي.

فوصلنا إلى فندق المهاجرين في بكرة النهار، لمعرفتنا أن احتمال فرارهما منه قوي. وقضينا معهما ست ساعات، بيّنا لهما فيها وضعهما القانوني ومزايا بقائهما في فرنسا، وعقدنا بيننا وبينهما من حبال الألفة ما أمكن، حتّى تنشأ ثقتهما بنا.

علي أنه ظهر لنا من الأمارات ما يدل على أن القصص الأولى، التي قصها علينا الشابان البالغان سن الرشد: الشابّة ماي والشابّ توان، قصص غير صحيحة، تمّرنا على قصها. فقد قالت ماي إنها يتيمة الأيوين من أهل مقاطعة كونغ تي -مع أنّ الظاهر من لهجتها غير ذلك-، خطفت وسنّها عشر سنين، وأتي بها الصين، وفيها صبرت على السخرة سنين متواليه. وزعمت أنها لقيت يوماً رجلاً من أهل

الصين (لم تسألها عن اسمه البتة)، فأراد أن يدفع نفقة سفرها إلى أوربا ففعل وأعانها على الفرار. وهذه قصة يكثر أن يأمر المهربون المهاجرين بقصّها على السلطات ساعة يسألون. والحق أن عصابات الإجرام قلما يقبلون أن يهربوا من يتامي الأيوين من لا يدفع ثمن تهريبه. ولكننا راعينا مشاعر ماي، فرمّا كان سبب قصّها علينا قصّها الكاذبة أنها في طريقها أسية إليها أو استغلت استغلالاً جنسيّاً.

فكان أول ما بدأنا به في بناء الثقة أن أظهرنا إدراكنا لحالهما الشعوريّة، وقدّمنا لهما الطعام والشراب، وبيّنا أننا إنمّا جئناهما متطوعين نبتغي إعانتهم. وأخذنا في الأحاديث المستملحة، فسألناهما ما تفضلان من المأكّل الفيتنامية ومن



مرأة تعكس مهاجرين فيتناميين في مخيم 'مدينة فيتنام' بفرنسا، الذي يكثر أن يكون موضع آخر مرحلة يقطعها المهاجرون الفيتناميون قبل أن يدخلوا المملكة المتحدة، وهم في الشاحنات مخبئين.

● أن تُشرك القطاع الخاص ليجري من برامج الوقاية في فيتنام ما يعالج عامل الدفع الاقتصادي.

حملات الوقاية وتوسيع المدارك

بِحُتاج اليوم في أوروبا وفيتنام إلى حملات لتوسيع المدارك، تُصوّر حقيقة العمل في أوروبا، وتُظهر ما يُصاحب استغراق الديون العظيمة من تزايد غرر الاستغلال والآتجار. فلا بد لبرامج الوقاية كلها أن تكون قبل الوقوع في الدين، فضاء الدين يبدأ حين يجعل المال في يدي المدين في فيتنام، لا بعد بشرع في سفره. وينبغي في هذه البرامج تعدد الوجوه وأصحاب المصلحة، ومعالجة الأسباب الأصلية. ولا بد لهذه البرامج أيضاً من أن تجمع بين أعمال توسيع المدارك وإتاحة فرص التقدّم، كمنح الدراسة في المدارس الثانوية والمهنية وبرامج التوظيف. ولا بد من أن يكون خطاب الوقاية بحيث يراعي ما للمقاطعات التي يأتي منها جل المهاجرين من خصائص ثقافية ولغوية. ومثل هذه البرامج تتلقى بالقبول عموماً إن أجراها قادة المجتمع المحلي كالاتحاد النسائي، أو أجزائها المُقتدى بهم ذوو التأثير.

التوصيات

ينبغي للسلطات والمنظمات غير الحكومية الأوربية أن تقتفي التوصيات الآتية، لتحسّن استجاباتها من كل وجه، وذلك في تعيين وحماية المهاجرين ومن يُحتمل أن يكونوا ضحايا آتجار أو استغلال، فينبغي لها:

● أن تجمع معطيات شاملة لضحايا الآتجار في أوروبا كلها.

● أن تتخذ في مقارنة الإجراء المنظم الفيتنامي مقارنة تعدد فيها البلاد والهيئات، وأن تزيد تشارك المعلومات وتوسّع شبكة التواصل بين الهيئات التي تتبع الحكومة وهيئات إنفاذ القانون والمنظمات غير الحكومية.

● أن تركز همتها في ما هو ملتبس من حدود بين الآتجار والتَّهريب لإعداد استجابة أكثر نجوعاً مما كان.

● أن تضم وتدرب من الجاليات الفيتنامية عمالاً اجتماعيين وموظفين في إنفاذ القانون.

● أن تجعل لمن له اتصال بمن يُحتمل أن يكون ضحية من مترجمين وممثلي منظمات غير الحكومية وعمال اجتماعيين وموظفي إنفاذ القانون تدريباً إضافياً مخصصاً. وينبغي في هذا التدريب أن يُعرّف المتدربون سُبل نشر معلومات مختصة بالسياق الفيتنامي وإجراء مقابلات تراعي فيها ثقافة المُقابلين، وأن يُوجز للمتدربين ما بين يدي المُتجرين والمهزبين من الآليات تحكم مخصوصة في ضحاياهم.

ومن أمثلة نُجح برامج الوقاية برنامج وُضِع بمشاركة قامت بين منظمة غير حكومية مقرها فيتنام مَعنية بمكافحة الآتجار، وحكومة المملكة المتحدة وحكومة فيتنام والقطاع الخاص. وقد استعملت في حملة البرنامج إعلانات المُنفعة العامة، بُثت عن طريق المعروف من وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات، وأظهرت في الإعلانات نجوم لاعبي الفريق الوطني الفيتنامي في كرة القدم. إذ إن كرة القدم في فيتنام هي أقرب ضروب الرياضة إلى قلوب عامة الناس، ويرى لاعبو الفريق الوطني هناك أبطالاً يُقتدى بهم. وأيضاً فقد استعملت الإعلانات لتعريف مُشاهديها ما هو موجود من منح تمنحها المنظمات غير الحكومية للدراسة في المدارس المهنية، وبرنامج إيجاد الوظائف المناسبة لطالبيها، فيمهد كل ذلك سبيلاً آخر إلى مستقبل أفضل في فيتنام.

ميمي فو Mimi.vu@gmail.com

نادية السبتاوي nadia.sebtaoui@gmail.com

خبرتان مُستقلتان بالآتجار بالشر

١. غيّرت الأسماء لحماية أصحابها.